الحياة صارقة !

العـــدل الالهى !

مقدماته الادراكية واليقين به

[مهداة إلى العقاد الكبير بمناسبة مقاله « تبـــارك رزاق البرايا »]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

١ — لا شك أن « العقل » هو المميز والخصوصية الأولى للانسان ، فواجبه أن يثق به ويقيم حياته جميعها عليه ، وهو محاسب عليه أشد الحساب . لأنه ميزان الحساب فى كل شىء

وهو الذى وطد الحيـاة الاجتماعية التى يحياها الإنسان الآن ، وإليه يرجع كثير ممـا فى الحياة الإنسانية من آثار الرفاهة والسعادة و الخدمة المشتركة بين الناس ، فلما ذا لا يصمم الإنسان على ألا يحيد عنه حتى يرتاح دائماً ؟

ولما ذا لا يعرف أن عقله روح من العقل الأعلى الذى يدير الكون بالتدبير والدقة والاطراد وعدم الإخلال بشىء ؟

إن الغرائز يجب أن تكون ملجمة بحدوده حتى يتأتى تقدم الإنسان دائماً وعدم ارتداده وانتكاسه

وعقلنا هو نتيجة تلاقى المؤثرات المختلفة التى فى الطبيعة على كياننا ، فيجب أن يكون تلاقى هذه المؤثرات موزوناً بنسب معينة تقريباً من جميع الجهات ، حتى يخرج العقـل منسوقاً موزوناً ... فإذا صار لشىء من الطبيعة زيادة تأثير على ناحية من كياننا ، كان فى هذا اختلال لمركز التجمع الفكرى العام .

ومهمة التربية والتنشئة أن توازن بين تسلط هذه المؤثرات الطبيعية جميعها على الإنسان ، فلا تجعل مؤثراً أو عدداً من المؤثرات يطغى أو يستأثر بالتسلط عليه ، بينما المؤثرات الأخرى تكون معطلة

فإنسان الصحراء وحدها قد خضع لمؤثراتها وحدها ، فله عقل معين ؛ وإنسان المزارع وحدها متأثر بها وحدها ، فله عقل آخر . وإنسان المدن الصناعية له عقل ثالث . وهلم جرا

وإنسان الفن وحده له عقل معين ، وإنسان العلم وحده له عقل آخر ، وإنسان الأعمال التجارية له عقل ثالث وهلم جرا .

فلكى نتحاشى أن تكون الفروق بين العقول فروقاً فاحشة بحيث لا يمكن تلاقيها ، يجب أن نجعل الفرد تتقلب عليه شتى المؤثرات وتتداول فكره ، حتى تكون آثارها فيه بنسب موزونة تعطيه سعة النظر إلى الحياة وتقدير آفاقها جميعاً

وإنى لأعجب للدرلة الواحدة التى تترك أفرادها ، وبينهم من التفاوت فى النشأة العلمية والاقتصادية والخلقية ما لا يمكن أن يتصور معه لقاء منهم على شىء !

فكيف يتصور هؤلاء الأفراد الأوزاعُ المشتتون الذين لا رابطة تجمعهم معانى العدالة الإلهية أو العدالة الإنسانية ؟ !

لا شك أنهم معذورون إذا لم يستطيعوا أن يتصوروا تلك المعانى الكلية الجامعة التى تحتاج إلى إعداد وتهذيب وتمرين خاص لإدراكها

٢ — وأول نظرة يدركها العقـل الذى يتعرف وجهات الحياة والاعتراف بجميع الأمم والشعوب ، المتحرر من التأثر بالمخلفات ومواريث التاريخ ، توحى أن الإنسانية أسرة واحدة ، وأن الأرض وطن واحد لهذه الأسرة

وثانى نظرة توحى أن الله وضع الإنسان فى الأرض موضعاً عظيما هو موضع السيد المتصرف ، على الأقل فى الظاهر

وثالث نظرة توحى أن الله أطلق للانسان قدرة وأعطاه اختياراً لتكييف حياته كما يشاء . .

ورابع نظرة توحى أنه يكاد لا يكون فى الطبيعة فساد ولا آلام تجعل وجه الحياة كريهاً مشوهاً ، لا يباشر إلا على غضاضة ومضاضة إلا بفعل الإنسان الذى نسبة الشرور التى يرسلها هو على الحياة وعلى بنى جنسه أعظم بكثير من الشرور التى تأتى من الطبيعة مباشرة كالبراكين والزلازل والطوفان والصواعق ... الخ ، وخصوصاً فى هذا العصر الراهن ... ومن المشاهد المعروف أن الإنسان لا يضيق صدره بقضاء الله وقدره المباشر ، ولا يثور غضبه وحقده ، ويتحول إلى عامل دمار وخسار إلا فى مقاومة الاعتداء والشر الإنسانى الذى يأتيه من الناس ، لأنه يجد نفسه فى قدرة على دفاعهم والانتقام منهم ، فيقدم على ذلك ليرضى حزازات نفسه . أما شرور الطبيعة ، فيتألم منها ، ولكن لا يثور عليها ، لأنه لا يملك أن يثور عليها ، فهو يجد أن أحسن وسيلة للقائها هو الصبر والاحتمال ومحاولة مقاومتها بإدراك أسباب الوقاية أو المعالجة

فإذا أردت أن « تحاكم » الله ، وتعرف واجبه الذى فرضه على نفسه ، فلا تنظر نظرة ضيقة متأثرة بالأنانية الشخصية

أو القومية ... لا تنظر إليه من مكانك أنت فى أمتك ولا من مكان أمتك فى الأمم ، بل انظر إليه وأنت تمثل الإنسانية الواحدة الهائلة ...

ثم إذا أردت أن تنظر إلى الإنسانية فى الأرض ، فانظر إليها من السماء نظرة الله ... إنك حينئذ تراها هكذا : أسرة واحدة متنوعة أفراداً وجماعات وأمماً .. كل جماعة استأثرت بمكان ومنعت غيرها عنه . وكان اقتسام الأمكنة غير عادل فأخذت أمة السهول الممرعة ونالت أخرى الأجادب ، فزاغت عيون المحرومين وجاعوا إلى الضروريات فلم يلب لهم رجاء ، ولم يخف المترفون الأغنياء لنجدتهم ، فهاجوا وقاتلوا واستولوا وأذلوا وصار بعضهم يموج فى بعض . .

وحقيقة الحقائق الاقتصادية التى يجب أن تقوم عليها فلسفة الحياة المادية ، أن ما فى الأرض من خيراتها ومناجمها وموارد الأرزاق كاف لجميع سكانها . . ذلك أمر تولى الله تقديره وتدبيره « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .

كان الواجب العقلي المجرد من الغرائز أن يسرع المتخوم بإسعاف المحروم ، وأن يقتسم معه ما زاد عن كمالياته ، وأن تقوم حكومة عادلة تتولى ذلك . . فإن الأرض كلها ميراث للانسانية كلها كما يرى الله وكما قدر ودبر ...

٣ — وعقيدتى أن كل ظلم واقع على المستضعفين فمسئوليته أمام الله واقعة على كاهل الأمم القوية ، وكل أمة جاهلة مسئولية جهلها واقعة على الأمم العالمة . . وكل أمة فقيرة مسئولية فقرها واقعة على الأمم الغنية . فالله تعالى ترك القاصرين منا للراشدين ، كما يترك الأب أولاده الصغار لرعاية الكبار . . ذلك قياس العقل الإنسانى وذلك منطقه فى الأسرة الواحدة . فلم لا يكون قياسنا فى الأمة الواحدة ، ثم فى الأمم المتعددة ؟ !

ولذلك كانت النفس العربية فى أول نهضتها برسالتها تحس ذلك الإحساس المتمثل فى قول رسول الله : « كلكم راع وكلكم مسئول » .

وقول أبى بكر : « لو أن عقال بعير ضاع بالعراق لحسبت أنى مسئول عنه أمام الله » .

وقول عمر حينما رأى شيخاً قبطياً يسأل الناس على باب مسجد « لقد أضمناك صغيراً ولم نكفك كبراً » وأجرى عليه رزقاً يكفيه . .

وقد قام العرب أول الأمر بمقتضيات هذا . فكانوا يعتقدون أنهم مسئولون عن إصلاح الناس جميعاً ، ورعاة لهم جميعاً . . فتنقلوا كالسحب لا يبحثون عن الأمكنة الخصبة للاستمار ، بل يبحثون عن عباد الله للارشاد والإنقاذ والتعليم ، فكان أحدهم يخرج من جنات الشام والعراق ومصر إلى صحارى الشرق والغرب يبحث عن النفوس الضالة والعقول الشاردة . . فلما ركنوا إلى المكث فى الرياض وتركوا الهجرة لمثلهم الأعلى وفقدوا التبشير به قل دخول الناس فى دينهم إذ وجدوهم مثلهم . . تجار دنيا . .

٤ — إن العقل إذا أهمل ضلت الإنسانية وتحولت أسباب حسناتها إلى سيئات . . والمسئول عن ذلك ليس الله ، بل الإنسان فى مجموعه ، ولم يخل عصر من العصور التاريخية من امبراطورية عظيمة كانت تسيطر على أغلب مقدرات الأمم ، وتستطيع أن تقيم العدالة بينها لو أرادت ، ولكن الأنانية والجهل وعدم الانتباه إلى مسئولية الخلافة فى الأرض هى التى ملأت الأرض بالظلم والفساد . .

والدليل على ذلك أن الانجليز مثلا أو الجرمان أو الروس البلاشفة أو الأمريكان حين أقاموا دولهم فى بلادهم على الشعور بالوصاية العامة وتوزيع العدالة بالتساوى ارتفعت نفوس الأفراد وصحت لأجسام وسمت عقائد الحياة وتقدم العلم وكفيت حاجات النفوس إلى حد ما . مع أن كل أمة من هؤلاء مكونة من عدد كبير . . بينما أمة صغيرة من الهمج وأشباههم لا يزيد عددها على بضعة آلاف ولا تزيد مساحة بلادها على بضعة أميال، تعيش فى فوضى واضطراب وفساد وجهالة وذلك لعدم الاحساس بالمعنى الإنسانى فى كل فرد ، وعدم الاحساس بالوصاية وعدم تدبير الأمر بينهم .

وإن حياة السوء التى تحياها الأمم المتأخرة هى التى تبلبل عقائد المفكرين منا والجهال . وتجعلهم يحملون الله مسئولية ما يقترفون هم . . . إنهم يعترفون بالأقدار ويحملونها متاعبهم ومسئولياتهم حين يكونون متأخرين متقاعسين ، ولا ينظرون إليها ويعترفون بها حينما يكونون قادرين .

وإنك لو فكرت وقدرت لوجدت أن جرائم القادرين والأغنياء هى التى سببت ملء الأرض بجرائم الفقراء كالسرقة والقتل وحمل أسباب الأمراض وآثار الفقر المدمر . .

(للكلام صلة)

عبد المنعم خلاف